مواقف الإنسان مع الموت

للدكتور ماهر حسن فهمي
الأستاذ بقسم اللغة العربية

لا شك أن معضلة الموت ، كانت تشغل ذهن الجاهلي دائماً ؛ وتنعكس على أخطر تصرفاته في الحياة . الشباب والشيخوخة ، اللقاء والفراق ، الجبال والنجوم وكل ماهو باق ، يذكره بما هو ذاهب . وحين تقرر الأديان السماوية أن هناك بعثاً وحياة أخرى ، فإنها تزيل الكثير من وحشة الموت ، بل إن القرآن الكريم يقرر أن الشهداء عند ربهم يرزقون (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ؛ بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) آل عمران ١٦٩ . ويتحدث عن الجنة حديثاً طويلاً ، يمحو رهبة الموت ومعنى الفناء من ذهن الإنسان المؤمن ، ولكن عرب البوادى لم يكونوا مؤمنين . والواقع أن بعض الفلسفات الهندية القديمة كانت تؤمن بتناسخ الأرواح (١) ؛ فالموت إذن على هذه الصورة مرحلة وقتية ، والفكرة على هذا النحو تمثل الخلاص العقائدى من الفناء بالموت ، و تزيل الآثار المترتبة على هذا الإحساس من نفس الإنسان ، ولكن عرب البوادى لم تكن لديهم هذه الفلسفات .

كان الإنسان الجاهلى أمام الموت وجهاً لوجه كما يقول عبيد بن الأبرص :

إن أمامك يوماً أنت مدركه   لا حاضر مفلت منه ولا بادى (٢)

ونلمس هذا الموقف في معلقته (فكل ذى إبل موروثها ، وكل ذى سلب مسلوب ....) (٣) . الموت إذن نهاية يرقبها الإنسان كل يوم ، وهو لغز غامض ، فلا يدرى الإنسان ماوراء هذا المجهول . إن القدر أشبه بالهاوية التى لا قرار لها ،

(١) قصة الحضارة جـ ٣ من المجلد الأول ص ٢١٠ وما بعدها .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص رقم ١٦ ص ٤٨
(٣) الديوان رقم ٥ ص ١٢

بل أشبه بفم الوحش وهو الموت . وهل يعود من يسقط في هذه الهاوية السحيقة ؟

يطـــوّف مايطـــوّف ثم يأوى ذوو الأمـــوال منّـــا والعديم
إلى حُفَر أسافلهن جُـــــوف وأعلاهـــن صفّـــاح مقيم(١)

ومن ثم لا يبالى بطقوس الموت . ولا يبالى بكلمات الرثاء . إنها نهاية كئيبة لا الوداع يغنى ولا الكلمات بنافعة . وليس هناك مايبقى أبداً . فالموت بمرصد دائماً ؛ كأنما هو صائد كريه لا يخيب سهمه أبداً . ثم يترك ضحيته تنهبها الضباع وتنهشها الوحوش : يقول الأسود بن يعفر :

وودعوني وقالوا ساعة انطلقوا أودى فأودى الندى والحمد والجود
فما أبالى إذا مامت ماصنعـــوا كل أمرئ بسبيل الموت مرصود(٢)

وإذا قال طرفة : (لعمرك إن الموت ماأخطأ الفتى . لكالطول المرخى وثنياه باليد)(٣) . أكمل الصورة مشعث العامرى قائلاً : (٤)

وجاءت جـــيأل وأبو أبيـــــها أحـــم المأقيـــــين به خُماع
فظـــلا ينبشان الترب عـــــنى وما أنا وَيْبَ غـــيرك والسباع

ولكن الفرقدين خالدان . والجبال خالدة . وهذا مما يزيد إحساس الإنسان بحدة المفارقة (وكل أخ مفارقه أخوه . لعمر أبيك إلا الفرقدان (٥) . (ألا لا أرى على الحوادث باقياً . ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا (٦) .

وإذا كان المستقبل يتربص به الموت والحاضر لامعنى له لأنه حافة السكين بين الماضى وبين المستقبل . والماضى نفسه ابتلعه العدم ، فما أعجب هـــذا

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ص ٦٢ . وقد حقق المرزوقى جاهلية الشاعر البرج بن مســهر الطائى فى شرح الحماسة جـ ١ ص ٣٥٩
(٢) الصبح المنير ص ٢٩٥
(٣) ديوان طرفة ص ٢٤
(٤) الأصمعيات رقم ٤٨ ص ١٦٥
(جيأل : أنثى الضبع ـ الأحم : الاسود ـ والخماع : العرج ـ ويب غيرك : الويب هو الويل والهلاك أى هلاكا لغيرك) .
(٥) البيت لعمرو بن معد يكرب . راجع الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٢٩٨ ، وهو يذكر أنه قال هذاالنص قبل اسلامه .
(٦) ديوان زهير ص ٢٨٨

الدهر الذى يتلاعب كما يشاء بالإنسان ويغيّر من تفكيره ومن أحواله . يقول بن أبي سلمى [١]:

بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم ... وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا
وإني متى أهبط من الأرض تلعة ... أجد أثراً قبلى جديداً وعافيا
أراني إذا ما بتّ بت على هوى ... فثم إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حفرة أهوى إليها مقيمة ... يحث إليها سائق من ورائيا
بدا لى أني لست مدرك ما مضى ... ولا سابقى شيء إذا كان جائيا
أراني إذا ماشئت لا قيت آية ... تذكرني بعض الذى كنت ناسيا
ألم تر أن الله أهلك تُبّعا ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون أردى جنده والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمّة أصبحت له ... فتتركه الأيام وهى كما هيا

هكذا يدور الموت دوراناً متصلاً عنيفاً في أشعار الجاهليين ينبئ عن تفكيرهم المستمر في معضلته . وخوفهم من ضرباته . وحين يفكرون في « لقمان » الذى عاش حياة طويلة بدت أبدية : يذكرون أن الموت أدركه في النهاية ، كأنما هو في حبل المنية كما يقول طرفة . وحين يفكرون في ذى القرنين (وهو الصعب بن الحارث في رواية والاسكندر في رواية أخرى) يذكرون صولته وضخامة ملكه وجبروته ، ثم زوال كل شيء في النهاية .

وفي نفس المعنى يقول طرفة بن العبد :

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت ... عليه النسور ثم غابت كواكبه
وللصعب أسباب تجل خطوبها ... أقام زماناً ثم بانت مطالبه
يسير يوم الحتف والعيش جمعه ... وتمضى على وجه البلاد كتائبه [٢]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٥ وما بعدها .
(٢) ديوان طرفة ص ١٢

ومن هنا كانت لهم أساطيرهم التي تبحث في الموت والخلود . كما كانت لكل الشعوب القديمة مثل هذه الأساطير (١).

وإذا كان العمر عارية تسترد . فالمعروف أولى على قدر ما تطيق (لعمرك ما الأيام إلا معارة . فما أسطعت من معروفها فتزود) (٢) والذكر الطيب أبقى (ألم تر أن الناس تخلد بعدهم . أحاديثهم والمرء ليس بخالد ؟) (٣) وتلك حكمة العقلية الجاهلية في بعض ضروب تفكيرها ، لأن الحياة الجاهلية أشمل من أن تجمعها هذه الحكمة وحدها . والأمم أعمار كما يقرر علماء الاجتماع . والمرحلة الجاهلية تمثل نهاية مرحلة الطفولة في حياة الأمة العربية ، وهي مرحلة معروفة في حياة الإنسان وحياة الحيوان على السواء. مرحلة تظهر فيها غريزة المقاتلة من أجل النمو.

يقول قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا (٤)

ويقول زهير بن أبي سلمى :

فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا ... إلى كلأ مستوبل متوخم

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا ... غماراً تغرى بالرماح وبالدم (٥)

« يصور الشاعر حياة هؤلاء الناس الذين لا يكفون عن الحرب إلا ليستعدوا لها ؛ ولا يقدمون على حرب إلا ليتحملوا أثقالها وآلامها ، حتى إذا بلغوا من ذلك حظهم الذي لا زيادة فيه لمستزيد ، لجأوا إلى السلم يجددون فيها قوتهم ، ويستكملون فيها عدتهم ، ثم استأنفوا نشاطهم للحرب من جديد . ويعجبني هذا التمثيل البديع

---

(١) مثل الصعب بن الحارث الحميري الذي ذكره طرفة والذي تجبر وعظم سلطانه وكان له عرش من ذهب ، وتحكي القصة — كما ذكرها وهب بن منبه في كتاب التيجان — أنه بعد التقائه بالخضر عليه السلام ، أدرك أنه عاجز مهما امتدت له أسباب القوة ، وأن الفناء مدرك الانسان مهما طال به الأمد — لاحظ أن لقمان عاش عمر سبعة أنسر — وأن الذكر يمكن أن يكون بديلا لمعنى الخلود . ولا شك أن أسطورة جلجامش البابلي وأوزوريس المصري تحمل نفس المضمون .

(٢) ديوان طرفة ص ٤٤

(٣) ديوان زهير ص ٣٢٨

(٤) ديوان الحماسة جـ ١ ص ١٨

(٥) ديوان زهير ص ٢٤/٢٥

الذى يشتق اشتقاقاً من حياة البادية ، ويضرب فيه المثل بإقطاع الإبل إلى رعيها إياها ، ثم ورودها الماء ، ثم انصرافها إلى الرعى ، لترد الماء إذا أدركها الظمأ ، . وهكذا ما تنفك مضطربة بين إيراد وإصدار ، ولكنها لا ترد ماء صفواً ، وإنما ترد غماراً تسيل بالدم وبالرماح ، وهى لا ترعى عشباً هنيئاً ، وإنما ترعى كلأً وبيلاً . » (١)

وهنا ينبغى أن نتوقف لنرى كيف فهموا الحياة ، أهى الخير في ظل السلم ؟ أهى الحرب وإشباع غريزة المقاتلة ؟ أهى أمر آخر غير الخير وغير الحرب ؟ من الواضح أن شبح الموت المترصد كان خطيراً جداً ، بحيث نستطيع أن نرى تأثيره في اتجاهات الحياة نفسها . والواقع أننا نستطيع أن نجد ثلاثة اتجاهات : اتجاه الفتيان وعلى رأسه طرفة بن العبد ، واتجاه الفرسان وعلى رأسه عنترة بن شداد ، واتجاه الحكماء وعلى رأسه زهير ابن أبي سلمى . أما أصحاب الاتجاه الأول فقد استغرقوا في الانكباب على اللذات ، وأما أصحاب الاتجاه الثاني فقد استغرقوا في الانكباب على القتال ، وأما أصحاب الاتجاه الأخير فقد وقفوا بين تطرف هؤلاء وأولئك ، يدعون للقوة ولا يدعون للقتال ، يدعون للخير وتحكيم العقل ولا يدعون للانكباب على اللذات .

يقول طرفة بن العبد في معلقته :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغـــى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عوّدى
فمنهـن سبقى العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنبا ... كسيد الغضا — نبهتـه — المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطراف المعمـد
كريم يروى نفسه في حياته ... ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى
أرى قبر نمام بخيل بماله ... كقبر غـوىّ في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح منضد

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٨٥/٨٦

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد[1]

في البداية الموت ، وفي النهاية الموت ، وبينهما كنز تفنيه الأيام . ومادام الخلود غير ممكن . والعمر يجرى مسرعاً عجلا . وينقص لحظة بعد أخرى . لأن الدهر ينهبه . فلنملأ كؤوسنا بما استطعنا من اللذات . حتى إذا أتانا الموت لم نعد نهتم بشيء . وما دام الكريم والبخيل يتساويان في النهاية . ويحثو الناس على قبريهما التراب فماقيمة المال . ولماذا ندخره ؟ بل لماذا لا نستهلكه في اللذة قبل أن تستهلكنا الأيام؟

ولكن ما هى اللذات في عرف الفتيان ؟ إنها الخمر والنساء وإشباع غريزة المقاتلة . ويعود السؤال من جديد ، لم شربوا الخمور ؟ أكانت لذة شربها والقدرة على مغالبة سورة الخمر هى الدافع الوحيد ؟

يقول الأعشى الكبير :

لعمرك إن الراح إن كنت سائلاً ... لمختلف غُديها وعشائها
لنا من ضحاها خبث نفس وكأبة ... وذكرى هموم ما تغب أذاتها
وعند العشى طيب نفسى ولذة ... ومال كثير غدوة نشواتها [2]

ويردد في قصيدة أخرى :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل
لا يستفيقون منها وهى راهنة ... إلا بهات وإن علّوا وإن نهلوا [3]

وفي النص الأول نحس أن الهموم انزاحت وأعقبها السرور وطيب النفس والأرتياح . والنص الثاني أصرح وأكثر دلالة حين يذكر الشاعر الموت ، ثم يغيب عن وعيه حتى يزول هذا الشبح الرهيب . وهو نفس المعنى الذى ندركه من قول عمرو بن كلثوم (وكأس قد شربت ببعلبك ... وإنا سوف تدركنا المنايا) .[4] إن لحظة الصحو تذكره بالموت . ويقول الجاحظ : « إن النبيذ إذا تمشى في عظامك ودب في أجرامك . منحك الصدق الحسن ، وسدّ عنك باب الغم ، وحسم عنك

(١) ديوان طرفة ص ٣٢/٣٤
(٢) ديوان الأعشى الكبير ص ٨٣/٨٤
(٣) ديوان الأعشى ص ٥٩
(٤) راجع البيتين السابع والثامن من المعلقة .

خاطر الهم » (١) وإذا كان تساؤل طرفة في أبياته السابقة (هل أنت مخلدى ؟) وصمت المسئول قد وضع طرفة إلى أن يشهد اللذات كما يقول . فلا شك أننا نلاحظ الارتباط بين الموقفين : وهو نفس موقف عبيد بن الأبرص حين يقول :

إن أشرب الراح أو أرزأ لها ثمناً   فلا محالة يوماً أنني صاحي
ولا محالة من قبر بمحنية   وكفن كسراة الثور وضّاح(٢)

إنه موقف الفتيان بوجه عام لخصه أمرؤ القيس في كلمات (تمتع من الدنيا فإنك فاني ؛ من النشوات والنساء الحسان) (٣) . فالمتعة هنا مرتبطة بمفهوم الفناء . والاستغراق في الشراب حتى يغيب الشارب عن الدنيا ويزول إحساسه الرهيب بشبح الموت ، هو أكبر متعة ، أو قل إنه لذة الهروب من الموت . ولا شك أن فترات الفراغ كانت طويلة تتيح لشبح الموت فرصة التردد مرة ومرات . ومن هنا جاءت لذة الهروب منه بملء هذا الفراغ . فالانكباب على الخمر ، يبطل التفكير في هذه المعضلة ؛ وكذلك الأمر في الانكباب على الجنس . فعلى الرغم من معنى امتلاك المرأة في هذا الموقف ، فإن الجنس والإسراف فيه والعكوف عليه ، فيه معنى الابتعاد عن مواجهة الحياة ، وفيه معنى التلهى به عن واقعها . بل هو لون من الغيبوبة التي تشبه غيبوبة الخمر. العكوف على الخمر وعلى النساء إذن ملاذ يلجأ إليه الإنسان الجاهلي هرباً من الإحساس بمطاردة الموت . وفي ذلك يقول الأعشى :

لعمرك ماطول هذا الزمن   على المرء إلا عناء معنّ
يظل رجيماً لريب المنون   وللسقم في أهله والحزن
وهالك أهل يجنونه   كآخر في قفرة لم يجن
وما إن أرى الدهر في صرفه   يغادر من شارخ أو يفن
فهل يمنعنى ارتيادى البلا   د ومن حذر الموت أن يأتين
أليس أخو الموت مستوثقاً   علىّ وإن قلت قد أنسأن
علىّ رقيب له حافظ   فقل في امرئ غالق مرتهن ...

(١) حلبة الكميت ص ١٤ وللجاحظ رسالة فى مدح النبيذ ، واخرى فى الشارب والمشروب .
(٢) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤
(٣) ديوان امرىء القيس رقم ٨ ص ٨٧

فقـد أشرب الراح قد تعلمـين يوم المقـام ويوم الظعن
وأقررت عيني من الغانيـات إما نكاحاً وإما أزن(١)

هكذا يطارد الموت الحياة . ويغتال الإنسان سواء أكان بين أهله أم كان وحيداً في القفر . لا يرحم شاباً ولا شيخاً . فأين المفر ؟ إن الفرار منه إليه ، وهنا يبدو المأمن . الخمر والغانيات . ففيهما الخلاص من شبح المطاردة . وحتى إذا أتى الموت نفسه في هذه الغيبوبة لا يكون بشعاً بشاعة الواقع بما فيه من إحساس مرير بالتربص ، وإنما تكون اللامبالاة ، يقول قيس بن الخطيم :

ومثلك قد أصبيت ليست بكهنـة ولا جارة أفضت إلى حياءها
إذا مااصطبحت أربعاً خط مئزرى وأتبعت دلوى في السماح رشاءها
متى يأتي هذا الموت لأتلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها (٢)

على أن غريزة المقاتلة تتسع دائرتها عند جماعة أخـرى من الشعراء هم الشعراء الفرسان كما قلنا من قبل. وتصور اتجاهاً خطيراً في حياة الجاهليين ؛ وقد جسمت لنا أيامهم قوة هذه الغريزة ، وتحكمها الشديد . على أن لقطات عديدة من مواقف الشعراء الفرسان سوف توضح لنا الموقف . يقول عنترة بن شداد في معلقته :

هلا سألت الخيل يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكمـاة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم ....
لما رآني قد نزلت أريده أبدى نواجـذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوتـه بمهند صافي الحديدة مخذم (٣)

الفروسية هنا موقف في الحياة . فالفارس يدخل الحرب من أجل الحرب ؛ لامن أجل الغنائم والأسلاب وربما وضحت الصورة بعض الشئ في قول عنترة

---

(١) ديوان الأعشى رقم ٢ ص ١٥/١٦
(معن : متعب — رجيما : مطاردا — يجنونه : يسترونه — اليفن : الشيخ الكبير)
(٢) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١ ص ٢١
(٣) الديوان ص ١٥/١٦

« ابدى نواجذه لغير تبسم » . إنها صورة الكمى يكشر عن نابيه وقد احتدم وطيس المعركة ، على أن الصورة على هذا النحو تعنى أمراً آخر ؛ تعنى قاتلاً ومقتولاً ، أو بمعنى آخر تعنى فارساً أمام الموت ، إما أن ينتصر على الموت وإما أن ينتصر هذا الموت الذى كشّر عن نابيه — على الفارس . القضية إذن تعود بنا إلى الموت مرة أخرى ، فما دامت الحياة نهايتها الموت ينتصر علينا في النهاية ، فلننتصر عليه إلى أن تأتي هذه النهاية ، وكل حرب يخوضها الفارس فيها معنى هزيمة الموت ، مادام الفارس يخرج منتصراً . إنه ينتصر على الموت ، لا على فارس بعينه ؛ ويشفى غليله منه لأنه يرمز للموت الكريه ، وطعنة الرمح من عنترة طعنة قاتلة لاشك في ذلك ، ولكنه يعلوه بسيف باتر ليتأكد من أنه قضى عليه تماماً . إن للموت انتصاراً واحداً على الفارس ، ولكن للفارس انتصارات وانتصارات عليه ، وهذا يريحه في حياته ، إنه يتربص بالموت كما يتربص الموت به ، فارس لفارس وشجاع لشجاع وموت لموت : (١)

ويشكو السيف من كفى ملالاً ويسأم عاتقى حمل النجاد
وكم داع دعا في الحرب باسمى وناداني فخضت حشا المنادى

إنه الموت يدعو باسمه ، فلا يستسلم ولا يخشى ، بل يخوض معه معركة يخرج منها منتصراً . ونحس أنه هنا يتلذذ بقتل الفرسان ، يتلذذ بالانتصار على الموت « فخضت حشا المنادى » ، ولذلك يلبى الدعوة للقتال سريعاً ، وإغاثة الملهوف معنى من معاني الشهامة وهو في نفس الوقت معنى من معاني الانتصار على شبح الموت — كما هو معنى من معاني إشباع غريزة المقاتلة عند طرفة مثلاً — وإبعاده عن المستغيث ، يقول عنتره :

ومكروب كشفت الكرب عنه بضربة فيصل لما دعاني
دعاني دعوة والخيل تردى فما أدرى أباسمى أم كناني (٢)

---

(١) الديوان ص ٢٢
(٢) مختار الشعر الجاهلى للأعلم ص ٤٠٤

ويقول النمر بن تولب في نفس المعنى :

وإن أنت لاقيت في نجـــدة فلا تتكـاءدك أن تقدمـا
فإن المنيـــة من يخشهـــا فسوف تصـادفه أينمـــــا
وإن تتخطـاك أسبابهـــــا فإن قصاراك أن تهرمـا (١)

وأبيات الحصين بن الحمام المرّي أوضح في دلالتها حين يقول :

تأخرت أستبقي الحيـاة فلم أجد لنفسي حيـاة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما (٢)

فالخوف من ملاقاة الموت في الحرب لم يمنعه من ملاقاة شبحه بعيداً عن الحرب . وشبح الموت يتتبعه ويترصده ويلح عليه ، ومهما فرّ لاحقه ، ولا يكسبه الفرار إلا العار والإحساس بالعجز والضعف والضعة . وإذا لم يكن من الموت بد : فلتكن المعركة إذن صريحة واضحة ، يلاقي فيها فارس فارساً وانتصاره هنا يعني انتصار الحياة على الموت . فإذا لامه لائم على كثرة اقتحامه الأهوال ، وتعريض نفسه للأخطار ، أجاب بأن الأخطار محدقة به سواء اقتحمها أو لم يقتحمها :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني قد بت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنيـة منهـــل لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبالك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل
إن المنيـة لو تمثـــل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل (٣)

ويستوقفنا البيت الأخير ، ففيه دلالة واضحة على الموقف . إنه تجسيم للموت ؛ فلو برزت المنية في صورة فارس لكانت عنترة ؛ ويطيب له أن يكرر هذا المعنى كأنه حقيقة مقررة لا جدال فيها . (وأنا المنية حين تشتجر القنا ؛ والطعن منى سابق الآجال) .(٤) إنه سباق بينه وبين الموت ولكنه السابق دائماً ، المنتصر دائماً على الموت المفزع . وعلى هذه الشاكلة تمضي حياة الفرسان ، يسبقون الموت إلى نفوس الأبطال . يقول تأبط شرا :

---

(١) مختارات ابن الشجري ص ١٧
(٢) العقد الفريد ١١٨/١ ، ديوان الحماسة ٩٥/١
(٣) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٩
(٤) ديوان عنترة ص ١٤٧

ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلّة من حد أخضر باتك
إذا هزه في عظم قرن تهللت نواجز أفواه المنايا الضواحك[١]

والصورة هنا عنيفة ، صورة الفارس يسبق الموت إلى نفوس الأبطال ، فيحس بالانتصار على الموت ؛ ولكن الموت لايحس بالهزيمة ، بل يطرب لأن روحاً قد سلّت . فيضحك مكشراً عن أنياب غلاظ في أفواه عديدة ، تهلل وهي فاغرة ، وتكتمل أبعاد الصورة حين يرسم عنترة منظراً لنفسه وهو يضحك، فيفزع الأبطال من رؤية الموت يضحك :

ألقى صدور الخيل وهي عبوس وأنا ضحوك نحوها وبشوش
إني لأعجب كيف ينظر صورتي يوم القتال مبارز ويعيش [٢]

والقضية على هذا النحو منتهية ، فالفرسان يندفعون إلى القتال كما اندفع الفتيان إلى الخمر والنساء . ونقطة الالتقاء هي الدافع وراء هذا الموقف أو ذاك . والدافع إلى كلا الموقفين هو عمق الإحساس بالموت .

بقي الموقف الثالث ، موقف الحكماء، وهو ينبع من نظرتهم إلى الحياة ؛ يستبد بها الموت في كل حين . وكيف نستطيع أن نقاتل الموت . إنه يرانا ولا نراه ومن ثم يعبث بنا كما يشاء ، ويفجعنا كل يوم :

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرميني ولا أرمي
لو كان لي قرنا أناضله ما طاش عند حفيظة سهمي
أو كان يعطى النّصف قلت له أحرزت قسمك فاله عن قسمي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبه يا دهر ما أنصفت في الحكم [٣]

إنها الأيام تجور في حكمها علينا فهل ينبغي أن نجور نحن أيضاً على أنفسنا، فنزيد الحياة مرارة وشقاء ؟ لابد إذن من المجاملة و المداراة في أمور كثيرة :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

---

(١) أمالي القالي ١٣٨/٢ وديوان الحماسة ٤٤/١
(٢) ديوان عنترة ص ٢٧
(٣) ديوان زهير ص ٣٨٥

وأعلم ما في اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن عـلم ما في غد عم
ومن لايصانع في أمـور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (١)

ويكرر هذا المعنى (إنما الحياة قليل والصفاء التباذل)(٢) . وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي إذن — في عرف الحكماء — أن نقضي هذه الحياة القصيرة في غيبوبة اللذة، ولا ينبغي أيضاً أن نستعجل الموت ، ولكن ينبغي أن نسعى للخلود، والخلود في عرف المفكرين هو الأثر الباقي والذكر الطيب :

فلو كان حيٌّ ناجيا لوجـدته من الموت في أحراسـه ربّ مارد
ألم تر أن الناس تخلد بعـدهم أحاديثهم والمرء ليس بخالد (٣)

وربما ذهبت أصداء الصيحات الحكيمة وسط ضجيج المعارك ، ولكنها بقيت تنبيء عن الصوت العاقل الحكيم ، وإن لاحظنا تتأثر بعضها بالأديان السماوية مثل أبيات مرقّش السدوسي التي يدعو فيها إلى ابتغاء الخير مهما تحرجت الأمور :

لا يمنعنك من بغاء الخير تعقاد العمائم
ولا التشاؤم بالعطاس ولا التيمن بالمقاسم
قد خُط ذلك في الزبور الأوليات القدائم (٤)

أو أبيات علقمة بن عبدة التي صور فيها الخير ومغانمه المرجوة ، والتعرض للشر وجرائره المشئومة . والحياة ونهايتها المحتومة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أني توجـه والمحروم محروم
ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامتـه لابد مشئوم
وكل بيت وإن طالت إقامتـه على دعائمـه لابد مهدوم (٥)

ومن هنا يرتفع هذا الصوت الحكيم منادياً بالسلم ؛ لأن استعجال الموت ليس له مايبرره ، وليس من الحكمة في شيء أن ندفع بأنفسنا إلى أنيابه . إنه اتجاه جديد في مقابل اتجاه الفرسان الذين يرون الحياة في المعارك وموت الآخرين ، اتجاه

---

(١) ديوان زهير ص ٢٩
(٢) ديوان زهير ص ٢٩٩
(٣) ديوان زهير ص ٣٢٨
(٤) المؤتلف والمختلف ص ١٠٢ ؛ عيون الأخبار ١/١٤٥
(٥) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٩

حكيم لأن شعاره «عش ودع غيرك يعيش» . وفي ذلك يقول بلعاء بن قيس الكناني :

ومهلاً عن الحرب التي لا أديمها ... صحيح ولا تنفك تأتي على سقم
فلابد من قتل وعلك فيهم ... وإلا فجرح ليس يكنى عن العظم
دعاني يشب الحرب بيني وبينه ... فقلت له: لا، بل هلم إلى السلم[1]

وهاهو ذا زهير بن أبي سلمى — شاعر السلم في الجاهلية — يقول مخاطباً آل «آل عكرمة» ، ومذكراً إياهم بصلات القربى ، فكلا الجانبين محتاج إلى السلام وترك الغزو ، حتى لا تندلع النار التي تحرق ذوى الأرحام :

خذوا خطكم ياآل عكرم واذكروا ... أواصرنا والرحم بالغيب تذكر
وإنا وإياكم إلى مانسومكم ... لمثلان أو أنتم إلى الصلح أفقر[2]

وصورة الحرب عنده صورة كريهة ، إنها صورة الموت ، صورة الرحا لا تطحن الحب من أجل خير الإنسان وبقائه ، ولكنها تطحن الناس، ولا تتوقف حتى تستوفي غايتها من الدماء :

وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم ... وماهو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحا بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم[3]

ولكن سؤالاً يلح هنا ، ترى كيف يمكن أن تتحقق هذه الدعوة ؟ وهل يمكن أن يبغي فريق على فريق ، فيقبل البغي لأنه يرفع شعار السلام؟ هنا يأتي قول زهير مفصلاً موقفه :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

---

(١) حماسة البحترى ص ٧٣ ، الحماسة البصرية ١/٦٣ (وفى المصادر خلاف فى نسبة الشعر اليه) .
(٢) ديوان زهير ص ٢١٤ (صلة القربى التى بين زهير وبينهم أن مزينة من ولد أو بن طانجة من مصر ، وهؤلاء من قيس عيلان من مصر أيضا) .
(٣) ديوان زهير ص ١٨/٢٠

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـــه ولو نال أســـباب السماء بسلم[١]

إنه موقف القوى الذى يؤثر الخير على الشر . وهو يعلم أن الذى يفر من الموت لابد أن يلحقه الموت . فالموقف إذن ليس موقف عجز وفرار ، إنه موقف القوى الذى لايهاب ولكنه يؤثر المعروف ، موقف القوى الذى يتبع سنة الحياة في عصر القوة ، والظالم أقوى من المظلوم دون شك . ولو أصبحنا جميعاً أقوياء . فلن يكون هناك ظالم ومظلوم . وبذلك يتحقق السلام الذى يتصوره وينادى به . ويكرر هذا المعنى حين يردد (وفتيان صدق لا ضعاف ولا نكل)[٢] . فهو يمدح القوة ويكور الضعف كما يمدح السلم ويكره الحرب . والسلم لا يتحقق إلا بقوة الجميع . وذلك يتفق تماماً مع قانون الحياة وقيمها في العصر الجاهلى . بل وفي كل عصر .

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذى الأصحـــاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتي عليهم وإقدامى وصدقي ومحتدى[٣]

فالحرب إذن لا ينبغى أن تقوم بإرادتنا . ولكننا قد نضطر إليها اضطراراً ، بعد أن نحاول كبح جماحها مرة ومرات ، وعندئذ نكون رجالها الأشداء :

دعاني يشب الحـــرب بيني وبينه فقلت له : لا . بل هلم إلى الســـلم
فلـــما أبي أرســـلت فضلة ثوبه إليه فلم يرجع بعـــزم ولا حزم
وأمهلتـــه حتى رماني بحـــرها تغلغـــل من غى غوىّ ومن إثم
فلـــما رمانيهـــا رميت سواده ولا بد أن ترمى ســـواد الذى يرمى
فبتنا على لحـــم من القوم غودرت أستتنا فيـــه وباتوا عـــلى لحـــم
وأصبح يبكى من بنين وإخـــوة حســـان الوجوه طيبى الجسم والنسم
ونحـــ ن نبـــكى إخـــوة وبنيهم وليس ســـواء قتل حق على ظلم[٤]

---

(١) الديوان ص ٣٠
(٢) ديوان زهير ص ١٠٦
(٣) ديوان طرفة ص ٤٠ (والوغل : أصله الضعيف ثم يستعار للئيم : فالمعنى : لو كنت ضعيفا لعزتنى عداوة ذى الأتباع والمتفرد) .
(٤) حماسة البحترى ص ٧٣

ويقول شميذر الحارثي :

بنى عمنـــا لا تذكــروا الشعر بعدما — دفنتم بصحراء الغُمير القوافيا
فلسنا كما كنتم تصيبـــون ســـــلة — فنقبل ضيماً أو نحكّم قاضيا
ولكن حـــكم السيف فيـــكم مسلط — فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
وقـــد ساءني ما جـــرت الحـــرب بيننا — بنى عمنـــا لو كان أمراً مدانيا
فإن قلتمُ إنا ظلمنـــا فلم نكـــــن — ظلمنا ولكنـــا أسأنا التقاضيا(١)

وهكذا تنتهى القضية بأبعادها الثلاثة ، تصور لنا موقف الإنسان الجاهلى في حياة ، ومنبع هذا الموقف وأثره في الاتجاهات التى تحدثنا عنها . معنى هذا أننا صل إلى ما يشبه النظرية العامة في الحياة ، فلا يقتصر الموقف على موضوع الحرب السلم . ولذلك لو تتبعنا الموقف من خلال زاوية أخرى ، لخرجنا بنفس النتيجة على النظرية التى تحكم تصرف الإنسان الجاهلى في الحياة . فعندما نحاول أن نتلمس ر الموقف في فن الغزل على سبيل المثال ، نجد ثلاثة اتجاهات تتفرع من مركز حد . فالشعراء الفتيان لايخطر على بالهم الهم طويلاً ، ولا يعذبهم الفراق كثيراً ، شاعرهم « طرفة » يركب ناقته ليرحل ، فيجد في الرحلة جواً آخر يزرع كل للكآبة (وإني لأمضى الهم عند احتضاره ، بعوجاء مرقال تريح وتغتدى)(٢) . الحكماء : فشاعرهم زهير يقابل وصلا بوصال ، وفراقاً بفراق (فصّرم حبلها صّرمته ، وعادك أن تلاقيها العداء) (٣). فهو لا يقطع ما بينه وبينها ، ولكنها قطعته وفارقته ، فلا بد أن يقطع الصلة هو الآخر ، فلا يسعى في إثرها ، ولا ول استرضاءها . إنه موقف السلام مع المسالم ، والحرب مع المحارب . فالمرأة ز للحياة ، واتصالها واستمرارها ، وفي اللقاء معنى الإقبال على الحياة . وهو يبدأ بالقطيعة كما لا يبدأ بالحرب ، ولكنه قوى أبداً ، مستعد للقطيعة وللفراق كان لابد منهما ، كما يستعد للموت وإن كان لا يتعجله ، والأمر هنا أمر اجهة حكيمة للموقف بغير هروب . أما الشعراء الفرسان : فشاعرهم عنترة ، ى في الحياة معنى الظفر في معركة الحياة ، فلا ينسى أو يتناسى ، ولا يقطع

(١) ديوان الحماسة ص ٥٦
(٢) معلقة طرفة (البيت الحادى عشر) .
(٣) ديوان زهير ص ٦٢

الصلة بينه وبين أحبابه ؛ ولكنه يسعى دائماً وراء محبوبته من أجل الانتصار على قلبها مهما كلفه الأمر . فالموقف في رأيه موقف حياة أو موت ، وهو قد تعود أن ينتصر على الموت ليحيا ؛ وتعلقه بالمرأة هنا تعلق بالحياة نفسها . (ولقد ذكرتك والرماح نواهل ؛ مني وبيض الهند تقطر من دمي) (١) . فهو يدفع الموت ويتعلق بالحياة ؛ يبغي الانتصار في كلا الموقفين . لأن الحياة في نظره مجاهدة مستمرة ، يمحو فيها كل شبح للضعف والموت : حتى يرى في النهاية لذة النصر ومعنى الحياة.

وقد لانجد لهذه الاتجاهات اضطراداً شديد التزمت ، ولكن هذا لا ينال من القضية ، فقد يقترب موقف الفتيان من موقف الحكماء حين يبغون النسيان ، وربما وجدنا أحد الفتيان يبكي فراق أحبابه مثلما نرى في مطلع معلقة امرئ القيس ، ولكنه هنا يبكي شبابه ، يبكي بضعة من عمره ولت ، ولا سبيل إلى عودتها ، يبكي انتصار الموت على الأيام وقتله لها ، وهو في نفس المعلقة يحكي عن مغامراته النسائية الأخرى ، وذكرى تلك الأيام التي عبرت وانقضت .

يقول مالك بن جريم الهمداني :

تذكرت سلمى والركاب كأنها قطاً وارد بين اللفاظ ولعلعا
فإن يك شاب الرأس مني فإنني أبيت على نفسي مناقب أربعا (٢)

ويقول الأعشى في موقف مشابه :

ولقد ساءها البياض فلطت بحجاب من دوننا مسدوف
فاعرفي للمشيب إن شمل الرأس فإن الشباب غير حليف (٣)

فذكرى المحبوب المفارق يصور له أيام الشباب المفارق ، وهو يأسى على هذا وذاك ، يأسى على الشباب لأنه يذكره بالمحبوب ، وهو في ذلك الجو العام كان ينسى همومه ، ويأسى على الشباب المفارق ، لأنه يذكره بواقعه ، حيث الوحدة والمشيب : والإحساس بقرب النهاية والموت . وقد نجد شاعراً مثل زهير يرحل أحياناً لينسى :

---

(١) راجع المعلقة (البيت الثالث والخمسون) .
(٢) الأصمعيات ص ٥٧/٥٨
(٣) ديوان الأعشى ص ٢١٣

دار لسلمى إذ هم لك جيرة ... وإخال أن قد أخلفتنى موعدى
دعها وسل الهم عنك بجسرة ... تنجو نجاء الأخدرى المفرد(١)

ولكن ينبغى ألا ننسى أنها حين قطعت صلتها به تركها ، وأن الرحلة هنا للسلام النفسى . وليست من أجل البحث عنها وتتبعها للظفر بها بعد أن تركته ورحلت ، فتلك طبيعة الفارس المقاتل ، مثل عنترة والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر الذى يقول :

أفاطمة لو أن النساء ببلدة ... وأنت بأخرى لاتبعتك هائماً(٢)

(١) ديوان زهير ص ٢٦٩/٢٧٠
(٢) الأغانى (دار الكتب) جـ ٦ ص ١٣٩